الحلقة الثانية

في صالون العقاد: كانت لنا أيام

كسر رؤوسنا ولم يحطمها!

أنيس منصور

هل كانت الدهشة هي التي تحرك كل حواسي؟

هل هي الدهشة التي قال عنها أستاذنا أرسطو . إنها بداية المعرفة ؟ .. فالإنسان يندهش لما يراه ويسمعه ويحاول أن يفهم ، والذي لا يندهش لما يراه ويسمعه .. فهو ليس هنا وليس هناك .. إنه غائب عن الدنيا .. أو الدنيا قد غابت عنه ..

لم تنته هذه الدهشة في صالون العقاد .. فنحن كل يوم نعطيه عيوننا ليجلوها . وآذاننا وعقولنا وقلوبنا . وننظر ماذا يفعل بها ..

تماما كما يقول أستاذنا الفيلسوف الوجودي مارتن هيدجر . فقد كان يصف علاقته بالحقيقة الكونية فيقول : إنها معبودتي . إنني أركع عند قدميها . وأحني لها رأسي وعقلي وأنتظر ماذا تجود به ..

أحيانا أحس أني في خلفة تفتيش .. فالأيدي تمتد إلى كل حواسي .. هذه الأيدي تلمس كل أعماق .. وتتأكد من استعدادي لهذه الرحلة الطويلة .. تماما كما يفحص الذين يصعدون الجبال أو يغوصون في الماء .. فهي رحلة عقلية وجدانية طويلة عريضة .. ويجب أن نتأكد من سلامة أجهزة الرصد والذاكرة ..

هل انشغلت تماما عن الاستمتاع بكل ما أسمع وأرى ، واكتفيت بأن أرصد وأحلل وأدخر ؟ .. هل كنت في ذلك الوقت متفرجا ؟ .. نعم .. هل كنت في ذلك – في الأربعينات أثناء دراستي في الجامعة – حكما في مبارزة ليس لها كأس ولا دوري ؟ لا أظن أني كنت كذلك فلم أكن قادرا على أن أكون طرفا في كل القضايا الفلسفية والأدبية والتربوية والسياسية التي كان يعرضها الأستاذ العقاد .

إنما كان يقوم بدور الحكم أناس آخرون أكبر سنا وأكثر تجربة وأقوى علاقة بالأستاذ .. أما الشعور المؤكد الذي لا أنسى فهو أن صالون العقاد قد امتلأ بالأحياء والأموات وبالأموات أكثر ، من عباقرة الفلسفة الإنجليزية والأدب الإنجليزي وبقية الآداب الأخرى . فقد كانت ثقافة الأستاذ إنجليزية . والإنجليزية هي لغته الوحيدة . وإن كان البحث في اللغات يضطره أحيانا إلى قراءة مقارنة لأصول الكلمات وكانت له طريقة لطيفة في نطق الكلمات الفرنسية . فهو لا يعرف كيف ينطقها . ولكنت لا أجد في ذلك عيبا فالأجانب لا يعرفون كيف ينطقون لغتنا . وكانت الكلمات الفرنسية التي يعرفها الأستاذ سليمة النطق صحيحة البناء وكان حريصا جدا على أن يكون دقيقا في كل شيء .

وكنت من المتحمسين للفلسفة الألمانية والأدب والموسيقى واللغة ..

وامتلأ صالون الأستاذ العقاد بكثير من الحيوانات أيضا فهو يجد متعة في أن يقارن بين الحيوانات وبين تلامذته أو أصدقائه الكبار . فكل واحد منه قد وجد له شبها بالحيوانات . ووجد لنفسه أيضا . هل كان يصف نفسه بأنه الزرافة ذات العنق الطويل ؟ .. إن المذكرات القليلة التي كتبتها واحتفظت بها منذ ذلك الوقت لا تجيب عن هذا السؤال .. ولكن أصبح صالون العقاد حديقة حيوان العقاد وكان كلما ذكر لنا ذلك تعالت ضحكاته . وكان لابد أن نضحك نحن كذلك – أو نجد أنفسنا ضاحكين معه .. هل كنا منافقين ؟ .. إن المجاملة تقتضينا ذلك . ولا أظن أن كلمة « المجاملة » هي الكلمة .. إنما كنا نفعل ذلك دون أن نفكر

وفي غيابه – أي عندما لا نكون في صالون العقاد – فقد كنا نجرب لعبة الحيوانات .. أي يطلق كل واحد منا على نفسه وعلى غيره اسم حيوان . وقد ذهبنا إلى أبعد من ذلك . فأطلقنا على أنفسنا أسماء حيوانات مختلفة في اليوم الواحد . كان يصحو الواحد منا من نومه حمارا ، ثم يصبح

حصانا . وبعد ذلك جملا . وأخيرا حنزيرا .. أو ينقض من نومه حائفا . ثم يصير خرافا . وفي الليل يكون يومة . أو الإنسان المشغل بالفلسفة قرد . وبعد أن يتعمق فيها يصير قردا أعمى . وقبل أن يموت يكون أعمى فقط . حمارا أو حصانا أو حنزيرا ..

وكما نتذكر عبارة مشهورة تقول : إني أفضل أن أكون مفراط الفقير على أن أكون روتشلد الحنزير ..

أي أني أفضل الفلسفة مع الفقر . على الثراء مع الجهل ولم يخطر على البال ونحن نصوغ أفكارنا أو نتركها للعفاد يصوغها . أنه من الممكن أن يكون الغنى فيلسوفا أيضا . أو أن تكون الثراء فلسفة ..

ولكننا كما نرى مع الأستاذ أن الفلسفة هي الثراء . وأن العقل قد وضعه الله على كفتها تأكيدا لأن العقل هو أجل وأعلى من كل شيء . وذلك درس تعلمناه من الأستاذ : أنه ليس أعظم من الإنسان . وليس أعظم من عقل الإنسان .. وأن الإنسان يستطيع أن يقف في وجه السماء . ويرفض هذا ويقبل ذاك

وكان الأستاذ العفاد يزاول وجودنا عندما يغضب من الدنيا فيقول : ما هذا الكون ؟ .. ما هذه الدنيا ؟ .. أعطني المادة الأولية لهذا الكون وأنا أصنع لك واحدا أفضل منه !

وكنا نتصور أن السقف سوف يقع فوق رءوسنا .. أو يهدم الكون لقبل هذه العبارة التي تدل فيها الغرور والعظمة وعظمة العجز وضلال الغضب . من الذي يعطي الأستاذ هذه المادة الأولية . طين الكون أو عجينة الكائنات ؟ .. إن الذي لا يجد المادة الأولى التي يصنع منها الكون لعاجز تماما عن أن يعمل شيئا !

• • •

وقد حدثت حدة مثل هذه العبارات عند الأستاذ يوما بعد يوم ..

وعندما قامت الثورة المصرية . كان يضيق بكثير مما يقال . أو مما يقوله الرئيس جمال عبد الناصر بعد ذلك . فيوم الاعتداء على الرئيس عبد الناصر كان يصرخ عبد الناصر قائلا : أنا الذي علمتكم الكرامة . وأنا الذي علمتكم العزة .

وكان العفاد يقول . إن شعبا يسمع مثل هذه العبارة ولا يثور عليه ويشنقه في مكانه . لشعب يستحق أن يحكمه ويذيقه بالعصا مثل هذا الرجل .. إنه عندما قام بثورته هذه . وجد البيوت والشوارع وملايين الناس والأهرامات وصينيات القوات المسلحة .. والجامعات ومئات الألوف من الكتب .. فقد سبقه إلى الوجود كل هؤلاء .. وسبقه إلى القاموس كلمات أخرى غير العزة والكرامة . الغرور والعظمة . مثل هذه العظمة

وعندما قرأ الأستاذ العفاد أن السيد كوثل الذين حسن أصبح رئيسا للجنة الطاقة الذرية . ضمن وظائف أخرى كثيرة يقوم بها قال : يا مولانا إن الله لن يحاسبني على ما أعمل . إذ كيف يحاسبني وقد خلقني في عصر كوثل الذين حسين وجمال عبد الناصر ؟ !

وانتهت من الأستاذ عبارات فيها رائحة الإلحاد وطعم الرفض ومقاومة الملاعب الذي كلما جاءته الكرة ألقى بها خارج الملعب . فليس لاعبا ماهرا من جعل الشبكة هي مقاعد المتفرجين

ولكن العفاد لاعب ماهر . ويعرف الشبكة ويعرف الأهداف . وهو حكم عظيم لأعظم مباريات الفكر الإنساني . ولكنه كان يضيق بالملاعين والمتفرجين وقواعد اللعبة . غير أن العفاد حتى عندما يغيب كان جادا

فالملعب له قواعد وله أصول وله قوانين . فعل الرغم من أنه لعب . فهو نشاط مدروس . وفلسفة حركية . وكان الأستاذ يلهو جادا . ويعبث متفلسفا . وأعتقد أنه كان يضيق بنا أيضا . وكثيرا ما تصورت نفسي جالسا في مقعده . وأطالع نفس الوجوه .. ثم ما هذه الوجوه ؟

انهم شباب بالقميص والبنطلون . إنهم مساحات من الألوان البيضاء والصفراء والزرقاء تخفي مقاعد بنية اللون . وتحجب الجدران ذات اللون الأزرق الباهت .. فالرءوس صغيرة والعيون لامعة .. كأنهم تماثيل بصقلية في متحف الشمع .. أما العفاد فقد جلس طويلا . كأنه قد استقر واقفا على مقعده .. يرفع رأسه ويديه ويحرك عينيه .. ثم يرمم شفتيه . إن لم يكن هذا قرفا . فهو نوع من التعالي .. أو نوع من الإرهاق الفكري . فلم يكن أمرا سهلا أن يظل يحملنا على كتفيه صاعدا هابطا .. ولعن إن لم نكن حتما جامدة . فنحن أحياء لا يعقلون ..

• • •

لابد أن أشعر بالقرف لو جلست مكانه .. أما سبب قرفي فهو أن أظل أحدث وحدي . لا حوار . لا أحد يسألني . لا أحد يقول لي شيئا . حتى لا أشعر بالوحدة أو العزلة أو الغربة .. ولكن من المؤكد أنه يجد متعة في الكلام . بقدر ما يجد متعة في الاستماع . وكثيرا ما أحس الأستاذ أن صمتنا هو عظيم الاحترام لكلامه . وقد إذا كان الفهم الوحيد فقد كنا آذانا عشرين . ولم يكن هكذا مرتين . إنما كنا أحياء نذعر هذا الكنز الفكري في أعماق أنفسنا .. ثم نروح نشخره .

أكانت أحاديثه جلسات لتحضير الأرواح ؟ نعم . كانت شيئا كذلك . فهو يقلب كتاب المول من العظماء . صفحة

وبكتة وحكمة .. ثم يعيد ترتيب هذه الصفحات . ويدور بنا ونثير معه زوبعة .. وتختفي العرفة الصغيرة بالقدوم والخديد . والحي والميت . والحيوانات والضحكات .. أكان صالونا مصغرا للآلهة التي تحدثت عنها أساطير الإغريق ؟ كان كذلك . وكان الأستاذ يقوم بدور الإله فولكان أبي الزكان – الذي يشعل النار ويضع فيها الحديد . ويلين له الحديد سيكاكين وسيوفا ومسامير ورماحا . وكان يسلحنا العفاد بكل ذلك .. ثم يطلب إلينا أن نمضي في الحياة ولا أظن أني افترقت مرة وخرجت من صالون العفاد أرهب الناس . إنما كنت أحس دائما أن صالون العفاد هو ثلاث غرف متداخلة بعضها في بعض .. إنها : النار والحطب والحدادة التي وصفها لنا الشاعر الإيطالي دانتي اليجيري . فنحن نتقلب معه على النار . ولكنه لا يحترق . ونتمرغ معه على المسامير . ولكنه هو وحده الذي لا تنفذ المسامير إلى جلده . حتى يتم تطهير النفس والعقل . واخيرا نطير معه إلى جنات الفلسفة والفن كرى من لهبها أبهار الإعجاب والمعرفة المؤكدة ..

• • •

هل حقا كنت سعيدا بذلك ؟ ؟

لا أظن أني كنت في نظرة الأستاذ ذلك الخطوط الذي يعني إليه خفيف الوزن . وأقول السلام طائرا . إنما كنت أحيء عفيفا وأعود ثقيلا . مهموم الخاطر حزين القلب . أمشي إلى جوار الحائط .. ولم عدت إلى تصوير نفسي ذاهبا إلى الأستاذ لوجدتني هكذا . أنزل من بيتي في الزمالك .. ٣٨ شارع السلطان حسين .. البيت تملكه السيدة بهجت هانم بكن أهت عدلي باشا يكن .. وأني يعمل عندها مديرا لمكاتبها الزراعية إنه رجل شاعر وأديب .. ولم أفكر كثيرا في الطريق الذي سلكه والذي الذي يحفظ القرآن ويرتله . ويحفظ الموشحات ويغنيها ويتقنها أيضا .. ثم إنه لا يفهم في الحساب .. لا يحسب ما يأخذ ولا يحسب ما يعطي حتى كاد يدخل السجن بسبب هذا الإهمال أو الحجر عن الفهم أو التواكل على الله .. لولا أنه واحد من عباد الله الطيبين . ولم أكن أقول لأي أين أذهب .. فقد كنت أرى الذهاب إلى الأستاذ حياة لأي .. فقد كان أبي هو حيي الأول . وجاء الأستاذ فأصبح حيي الثاني .. أو حيي الأول .. فقد وجدت رجلا أعظم عقلا من أبي .. وإن لم يكن أعظم منه قدرا ووجدت في هذه الحياة قرارا مستقلا . فمع العفاد اتخذت أول قرار لتغيير المصير .. وقرأت بالعفاد ودراسة الفلسفة والتعرف فيها . أن أنشق عن الطريق الرسوم لأن أكون شيئا ولا أدعي أن هذه العبارة الأخيرة صحيحة . أو وردت على رأسي في ذلك الوقت . فلم أعرف بالضبط ما الذي أريد أن أكونه . ولا كيف أكون . ولا ما هو العمل الذي سوف يحول أمي وإخوتي بعد وفاة والدي . لم أفكر في ذلك . وهذا غريب حقا . وقد تكفل واحد من إخوتي بالإنفاق على كلية الجامعية . هل نفسحة منه ؟ .. نعم . هل كان ذلك ضروريا ؟ .. لم يكن . فقد كان عليّ أن أعول نفسي وحاولت ولم أوفق . لماذا ؟ .. لا أعرف . وكانت محاولتي الأولى عندما كنت طالبا في المنصورة الثانوية . ولا أعرف كيف إن سيدة طيبة قررت أن تتبناني . وبذلك توفر على أسرتي طعامي وشرابي . ومن الغريب أن هذا الشيء هو بداية توجهي العقلية والفنية . فقد كنت أعيش مع السيدة وبين أولادها وعلى مقربة من حيث تسكن أمي وإخوتي .. آكل وأشرب وأنام بصورة محترمة . فإذا ذهبت لزيارة أمي وإخوتي وجدت أنهم لا يأكلون مثل طعامي .. ولا يرتدون مثل ملابسي .. فكنت بعد ذلك كلما أكلت طعاما وأحسست أن إخوتي لا يجدونه . تجردت معدتي وأمعائي . وهربت إلى أمي وإخوتي . وكنت أعرف جيدا ما الذي يشعر به الأستاذ العفاد عندما يضع يده على الجانب الأيسر من جنبه .. إنه هو أيضا

منصور فهمي

د. لويس عوض

حسن البنا

يكثر من القصران الغليظ ومن العدة . والقصران الغليظ من معالم المصريين . وأرجائه الشديدة من ملامح المصريين .

وجدت في وجع العقاد تقاربا . فقد أحسست أني انتسب إلى مدرسة القصران الغليظ التي عاش بها ومات أساتذنا العقاد .

ولا أظن أني كنت أفعل الألم عندما أضع يدي على جانبي الأيسر وأنا في طريق إلى الأستاذ . ولكن كان في حياة والدي بعيدا عن إخوتي في المنصورة ما يجعلني أتلمس الوجع في هذا الجانب وفي ذلك الجانب . ولكن لا أظن أني كنت أتذكر هذا كله في طريقي إلى العقاد . حتى كلمة « طريق » هذه ليست في موضعها . فلم يكن هناك طريق إلى العقاد . فلم أكن أشعر به . إنما أجدني أمام بيت العقاد . وكنت أحاول في كل مرة أن أقاوم هذا الجماع الحسي – أي الإحساس باللهفة على الصالون الذي يجعلني أسبح الشعور بالزهاد والنكران . فلا أدري كم من الوقت انقضت . وأي طريق سلكت . لم أفلح في معرفة ذلك إلا بعد وقت طويل .

ولم

يكن يفهم معنى ما كتبه الأستاذ عن صلاتي به .

فلم تكن لحسن بها . فقد كتب الأستاذ مرة عن كيف تقدمت به السن . فقال : « لقد كنت أصعد الدرج ثلاثا ثلاثا . وصعدته اثنين اثنين . وها أنذا أصعده واحدة واحدة . كنت أصعده ورياض شعري يتوارى في سواده . واليوم أصعده وسواد شعري يتوارى في بياضه » .

ثم أجلس مع الآخرين . أو قبلهم . ولا أذكر أني وجدت أحدا قد سبقني إلى صالون العقاد . فقد كنت أول الجالسين . وأحيانا تاليهم .

ولم أكن ركبت الطائرة ولا حتى الأتوبيس . ولم أكن أعرف أنهم في الطائرة يربطون الحزام أثناء صعودها . ولم أكن أعرف أنهم في الأتوبيس يتعلقون من سقفه أيضا . حتى لا يقعوا . وكنت أحتاج إلى ذلك في صالون العقاد . بل كنت أحتاج إلى أتوبيس الأوكسجين أيضا . هل كنت أحتاج إلى شيء آخر ؟ .. نعم . كنت أحتاج إلى كثير من التوشادر أيضا .

فقد توالت ضربات الأستاذ على أضعف . على دماغي . فعندما كان يشيد بالأدب الإنجليزي والفلسفة الإنجليزية ولكنه يضيق بالفلسفة الألمانية . لا جهلا بها . لكن تفضيلا لكل ما هو إنجليزي . وكان يقول : إن الأدب الإنجليزي هو أسلم أدب . لأن الإنجليز تجار بطبعهم . والتاجر أقدر الناس على فهم الناس . فالأدب الإنجليزي هو أدب الحياة .

ومن المؤكد عنده أن الشاعر شكسبير هو أعظم المواهب في التاريخ .

أما الشاعر الألماني جيته فهو يرى أنه رجل عظيم . ولكنه ليس إنسانا عظيما . ولا ينسى العقاد ما فعله هذا الشاعر الألماني بالفيلسوف الشاب فيخته . فقد كان فيخته فيلسوفا متطرفا . ولكنه وطني . وكان الشاعر الألماني وزيرا للمعارف . ورأى في ثورة الشاب تمردا على النظام . فعطله . وهذا قرار وزير . ولكنه ليس قرار شاعر كبير . ولذلك لم يره العقاد إنسانا كبيرا – ومعه حق .

وكنت عارفا في الفلسفة الألمانية والأدب والموسيقى . ولم يكن العقاد كذلك .

فإن لم يكن هذا الذي يقوله الأستاذ محاولة عنيفة لتحويلنا . فهو بالفعل نقطة تحول . فلم أستطع أن أساويه .

●●●

وعند الموسيقى والفلسفة بدأت أتشقق على نفسي . وأنبش على فلسفته .

فقد كانت في حياة فكرية وفنية أخرى . ولا أقول « حياة » . فلم أعرف معنى لهذه الكلمة أثناء الدراسة ولا بعدها بوقت طويل . فإذا كان صالون العقاد قد امتلأ بالأحياء والأموات . فقد كانت لنا في الجامعة صالونات أخرى هي التي تسميها المدرجات . أو كانت الجامعة هي الحياة الأولى . وصالون العقاد هو الحياة الثانية . أو ما بعد الحياة .

في ذلك الوقت لم أكن أذهب إلى العقاد وحدي . إنما من حين إلى حين أعرض عليه بعض الشخصيات الأخرى . كأنها العملات الذهبية وأعرضها عليه خلسة . وكان أحيانا ينظر إليها وأحيانا لا يفعل . فيقول : عبد الرحمن بدوي جاهل . لويس عوض أجهل منه . يا أخي لماذا لا تنظرون إلى صورة سارتر هذا وصورة ماركس .. وبدوي وعوض .. إنهم جميعا مشوهون .

ولم أكن أراهم كذلك .

وهذه

نظرية أخرى عند الأستاذ . أن هناك تشابها بين أفكار الناس وأشكالهم . ولذلك فحديقة حيوان العقاد ليست نكتة . إنما هي نظرية حقيقية .

والأستاذ هنا يؤيد العالم الإيطالي لمبروزو . ويعلن ذلك كثيرا . فهذا العالم الإيطالي يرى أن كل العبقرية شواذ . أو أنهم مجانين . ويرى أن المجرمين لهم معالم معروفة . وأنه يمكن أن ننظر إلى واحد منهم لنعرف إن كان قاتلا أو لصا .

ويقال إن أحد خصوم لمبروزو قد عرض عليه صورتين . وطلب إليه أن يعرف المجرم بينهما . فوضع يده على صورة أحد الأمراء . وقال : طبعا هذا هو اللص !

وظل لمبروزو طوال حياته يفسر ويبرر أن هذا الأمير إن لم يكن لصا الآن فسوف يكون . أو لعله كذلك دون أن نشعر !

●●●

وكان

العقاد في ذلك الوقت يواجه الشيوعية والشيوعيين والوجودية والوجوديين . ولا يجد حلالا بينها . لأنها جميعا تدوس كرامة الإنسان . أو لا تقيم وزنا أو حسابا لحرية الإنسان . فالشيوعية تجعل الإنسان حذاء للمجتمع . والوجودية تجعل الشعب حذاء للحاكم . والوجودية تجعل الكون كله حذاء للإنسان . ويقول : ما الذي يساويه أي إنسان حتى يضع الكون كله في جزمته ؟! قل لي يا مولانا

و « مولانا » مفروض أنه أنا . وما دمت واحدا من الناس . فلا يحق لي أن أرد عليه .

وكان د. لويس عوض يترس لنا الأدب الإنجليزي . وكان يرأس جمعية اسمها « جمعية الحرامفون » – والحرامفون كلمة لم يعد أحد الآن يعرف لها معنى . ولذلك فلابد أن أقول : الحرامفون هو ذلك الجهاز البدائي الذي توضع فيه الاسطوانات الموسيقية . أي أنه جهاز بدائي سابق على الريكوردر . فحيث كنا نضع الأسطوانة نضع الآن الكاسيت . وحيث نضع الآن البطارية . كنا ندير الحرامفون ونغذيه باليد كالساعات غير الأوتوماتيكية . وإذا كنت قد أطلت فلأن هذا الجهاز والخدمية قد انقرضا . ثم إني أعرف أنا نعيش في عصر إذا سألت فيه طفلا : أين وأيت الأريق ؟ . أجابك : في التليفزيون !

وكان د. لويس عوض شيوعيا أو يساريا . ولم أكن أعرف معنى ذلك . ولكنه تختلف عن د. عبد الرحمن بدوي أساتذنا في الفلسفة الوجودية . وعندما بدأت أستمع عبر العقاد وأدبه ومواربته . كنت أجد د. لويس عوض خيفا قصيرا . أصلع الرأس . أحول مثل سارتر . يمشي كأنه يقفز . يتكلم مع أي أحد . ويجلس على الأرض ويأكل معنا ساندوتشات الفول . ويسمعنا بيتهوفن وموتسارت واشتراوس . ويحدثنا عن ذلك .

وكان أفراد جمعية الحرامفون من طلبة قسم الفلسفة بآداب القاهرة . محمود أمين العالم ومحمد شرف وعباس أحمد ومبروك نصار ومصطفى سويف ومحمد جعفر وبدر الديب . أما عبد الرحمن الخميسي فمن قسم اللغة العربية .

وكانت للويس عوض قصيدة لا أعرف ماذا تقول . وكانت من الشعر الحر . يصف فيها غرام شابين . وينتهي هذا الغرام بأن يربط الاثنان بأن يشبكا يديهما في « حبلة » . بدلا من أن يضع كل واحد منهما حائطا في إصبع الآخر . ولكن لويس عوض شاء أن يجعل الرباط حرزا وعيشا وعيشة !

نيتشه

د. طه حسين

د. محمد حسين هيكل

في ذلك الوقت نشرت الصحف قصيدة لأحد الشيوعيين . سمعنا من الأستاذ . ولم أقرأها . مطلعها : إلى الذين يدافعون فرادى في المستنقعات !

يقول العقاد : ما الذي يريده أن يحدث في المستنقعات ؟ .. أن ينام الناس بعضهم فوق بعض .. وإذا خرجوا رفعوا أيديهم في السبيط .. أهذا كل مايرتبط به الآدميون ؟ ! ألا نرون في هذا شذوذا وجنونا ؟

وكان يطلب إلينا أن نستعرض كل الشيوعيين في صف واحد . ونظر إليهم . سوف نجدهم جميعا من الشواذ جسما وأخلاقا . لأنه – كما يقول الأستاذ – لا يمكن لإنسان أن يرفض إنسانيته إلا إذا كان مختلا . وهم جميعا كذلك ..

فماركس فيلسوف الشيوعية كان رجلا مخموراً بذيئاً لاخلاق له . وكانت زوجته كذلك . وقد انتحرت اثنتان من بناته . واحدة منهما قد تزوجت عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية . واتفق الاثنان على أن ينتحرا في اليوم الذي لا يجدان فيه الطعام . وكان يتفق عليهما وعلى كارل ماركس أيضا صديقه الفيلسوف الشيوعي فريدريش انجلز . وانتحر الزوجان . وبعد وفاتهما بساعة واحدة جاءتهما الفلوس .. متنتي الخدود الموروث عن الأب العبقري الهمول ..

وأنظر إلى لويس عوض . فلا أجد شيئا من ذلك . بل إن لويس عوض مسئول عن تعديل مسار أفكارنا ونحن صغار . فقد كنا طيورا جارحة جائعة . ولكنه استطاع بالعقل والمنطق أن يجعلنا طيورا داجنة . كانت السحب أرضنا . والسماء مسكنا . فجعل الأرض أقرب والسماء أبعد . لقد نزع الكثير من ريش أجنحتنا . حتى تعاير بالأرض . وتعايرنا به واصطدمنا أيضا . ولكن الذي فعله لويس عوض . هو نوع من « التشييء » – أي جعل الكثير من الأفكار شيئا ملموسا : فتلمسه بوضوح أو رفضه بوضوح .

ولا أنسى محاضرة للويس عوض ألقاها في قسم الفلسفة . فلم يكن بعيدا عن الفلسفة . ولا كان طلبة الفلسفة بعيدين عنه . كان موضوعها : التفسير المادي للأدب .

وسمعت ما لا يسر . ولكن ما لا أستطيع أن أنساه أو أستاذنا وشيخنا الأجل فقد كان د. عبد الرحمن بدوي .

وكان عبد الرحمن بدوي ينطبق عليه الوصف الذي قاله الفيلسوف أرسطو عن الله . فقد قال أرسطو : إن الله حتى لكون وأنار له طريقه .

أي وضع له القوانين ولم يعد يشغل به . تماما كما تدير ساعتك وتتركها .

وكان عبد الرحمن بدوي كذلك .. فهو أحمر اللون كبير الرأس أصلع قليلا . وكانت له عينان سوداوان لامعتان . وكانت له شفتان مزمومتان دائما . وكان يرتدي بدلة زرقاء .

عرفنا فيما بعد أنها الوحيدة للعيد – لا فقرا لكن بخلا . وكان لقميصه أزرق . وكانت كتبه كذلك : غلافها أزرق وورقها أزرق . وكانت هذه الكتب رائحة متميزة . أو هكذا كان خيالها في أنوفنا . وكانت هذه الكتب أحجاما واحدة .

نيتشه وشوبنهور وانشتاين والفلسفة اليونانية . وعندما زرته في بيته ٩ شارع حمدان بالخيزة . كانت له غرفة إلى جوار الباب . الغرفة معتمة دائما . وهذا واضح من رطوبة الهواء ورائحة الحبر على الحائط . وجدرانها زرقاء . وفي أحد أركانها تمثال نصف للفيلسوف الحضارة أوزفالد اشبنجلر . الذي يرى أن اللون البنفسجي هو آرك الألوان جميعها . وأن الإنسان لم يهتد إلى هذا اللون إلا متأخرا جدا . وطبيعي أن يكون ذلك هو اللون المفضل عند د. بدوي . ومن التراب على القواعد . ومن الالتصاق الشديد للأبواب والنوافذ . ومن الصمت الكامل في البيت . أحس أنه ليس هناك أحد . أو أن أحدا لا يدخل هذا البيت . أولا ينبغي له – فعلا لا ينبغي !

ولم يكن عبد الرحمن بدوي مثل لويس عوض هادئا دائما . فإذا لقيت لويس عوض توقف عن السير . دون أن يكون سبب لذلك . ولكنه مرتبط بالناس . وهذا الارتباط يجعله يتوقف فورا ويدخل في حوار .

أما عبد الرحمن بدوي فهو يمشي على عجل دائما . متدفع لا ينظر إلى أحد . وإذا نظر إليك فنظرة تشمئز أو تكشمك . أي تلميك تماما ليكون على راحته . ينظر إلى لا شيء .. لأنه لا شيء هناك . لا أنت ولا غيرك . وإذا حاولت أن تستوقفه لم يقف في مواجهتك . إنما يقف إلى جوارك . وينظر إليك بعض عينيه وبعض جسمه . ليس احتياطيا . ولا عنده أخوة ولا أبوة . ولا يعرف الحوار . وفي محاضراته كان يزور جاكتته ويبدأ في الكلام ذهابا وجيئة بسرعة وعنيفة أن تتابعه . وفي المحاضرة التالية يبدأ من حيث انتهى . لأنه قد ذاكر محاضراته تماما . واستعد لذلك . وكما يدخل يخرج . لا جلست أحدا ولا أحد اقترب منه . ولكن كنا نعجب بعلمه الغزير . ونرى أن عيوبه هي عيوب العلماء .

وأن الفلاسفة الأثقال الثاقبين هم سكان الجبال . عباد الشمس . يتعطون بالسحاب .. وإذا صعدوا ماروا على الجليد .. إنها القمم الباردة . إنها العظمة المجردة . إنهم أبطال الأفذ .

وقد تغير رأي لويس عوض في الأستاذ كثيرا . ولكن الأستاذ لم يغير رأيه لا في لويس عوض ولا في الأدباء والشعراء والفلاسفة الشيوعيين . فلويس عوض رأى بعد ذلك أن العقاد أستاذ عظيم . ورأى أن له الكثير من النظريات والاجتهادات والإبداع أيضا . وأن العقاد هو رائد الفكر الاشتراكي . والمدافع الأول عنه وعن حرية إبداء الرأي المخالف . ورأى أنه لا يعارض على أن يكون الإنسان شيوعيا . وأن يعلن رأيه . فلا حدود لحرية الرأي . ولكن الحدود يضعها المجتمع عند الممارسة والإحساس بالضرر العام . ولويس عوض عندما حاول هو الآخر أن يبحث عن جذوره الفلسفية .

قال : إن العقاد قد حرث له الأرض . وسلامة موسى قد بذرها . وطه حسين قد هدبها .

أما عبد الرحمن بدوي فلم يغير رأيه في الأستاذ . ولا غير الأستاذ رأيه في عبد الرحمن بدوي . وكثيرا ما أعلن الأستاذ أنه لا يقرأ له . وليس من الضروري ذلك . ويقول : إن الإنسان يحتفي عشرات السنين من عمره دون أن يرى أحدا أخرج . فهل يخرج كثيرا ؟ طبعا لا يخرج .

ولكن عالما كبيرا ومفكرا جادا مثل عبد الرحمن بدوي . ليس إنسانا أخرج . أو لم نكن نحن الثلة الصغار نراه كذلك .

• • •

ولم أكن قد رأيت طه حسين . وإن كنت قد استمعت إلى بعض محاضراته وقرأت بعض كتبه . وكل ما أتذكره في ذلك الوقت . أن مذاقه مختلف . وأنه إذا كان العقاد يبني بيوته من الأخشاب المسلح في وضح النهار . فإن طه حسين يبنيها من أغصان الشجر عند الغروب . وأحيانا في ضوء القمر .

فالعقاد هو المهندس المعماري . وطه حسين هو الخالي .

ولا أظن أن وقتي قد اتسع في ذلك الوقت لأجمع في وضع الحدود بين هؤلاء العظماء . إن العظمة تأخذنا وتسلبنا فنرتمد على الصغير . إنها مثل الشمس نشعر تحتها بالدفء . وأحيانا نهرب منها إلى الظل . ولكن من الصعب أن ننظر إليها لنراها أوضح . ولم يكن مهما في ذلك الوقت أن أرى القاموس أوضح . إنما أن أشعر بالدفء . وكان الأستاذ كصاحب التماثيل يستخدم السكين في تحديد معالم الشخصيات التي يحتاج عنها .

فكان الأستاذ يقول عن طه حسين : يسمونه عميد الأدب .. إنه ليس عميد الأدب .. إنه عمي الأدب !

وكان يقول إن د. محمد حسين هيكل باشا قد اصطدم به في إحدى غرف المجمع اللغوي . فقال له هيكل باشا

– حاسب يا أستاذ .

– كيف أحاسب وأنا لا أزال ؟

وكان د. هيكل باشا قصير القامة !

● ● ●

وكانت له تعليقات كثيرة حارة. وقد اعتدنا عليها. وكنا نضحك لها قويا، ونفكر فيها بعد ذلك. مثلا. كان يقول: لقد سألني كثير من الناس إن كانت النظرية ... ، ما تزال آسة. وكان يجيب: قلت لهم أنا لا أعرف شخصيا. ولكن كل الذين تزوجوها قالوا إنها تحداك !

وكان يقول إن الشاعر الألماني هيرينش هيه شاعر. فقال مرة: إنه رأى تمثالا للشاعر الألماني جيته. ومن الغريب أن الشاعر يشبه تمثاله تماما !

وكان يقول: كل إنسان اسمه مرسي أكبر دليل على أن أباه جاهل تماما

وقبل أن نسأل الأستاذ: لماذا؟

كان يقضي قائلا: لأن هذا الأب قد أطلق اسم مرسي على ابنه تيمنا بالشيخ المرسي أبي العباس في الإسكندرية. وهذا الشيخ اسمه المرسي لأنه ولد في مدينة مرسية بالأندلس. وهو اسمه المرسي. أما الذي يسمي ابنه «مرسي» فلأي سبب. إلا أن يكون جاهلا ؟

● ● ●

ولم يكن يتغلى عليه حسين في ذلك الوقت إلا من بعيد. فاعتد بذكره بالإعجاب والتقدير. أو لابد أن تسبقه هالات من الإعجاب تبدو على الوجه وفي نبرة الصوت. أو تخفي بعد ذكر اسمه. ولكون هذه الهالات ألقابا عامة مثلية مثل الألقاب في ذلك الوقت: صاحب المقام الرفيع. أو صاحب العدل أو صاحب السمو التي تسبق أسماء الوزراء والأمراء.

وكان طه حسين من أصحاب الخلافة الأدبية والفنية.

ولم يكن الأستاذ من أصحاب هذه الهالات. إنما كانت تسبق اسم العقاد كلمات أخرى كثيرة ما شكل الدفاع عنه. أو ما شكل التحدي به.

كأن نقول مثلا: ولكن الأستاذ العقاد...

أو: صحيح أن العقاد لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية ولكنه

أو: إن صفحة واحدة في كتاب للعقاد تعادل مئات الصفحات في كتاب لطه حسين ولكن طه حسين له شخصية وله نفوذ سياسي. وهو عميد ومعدو وزير، ولم يكن للعقاد شيء من ذلك كله

أي أن العقاد هو رمز لتحدي أشياء كثيرة في آن واحد فليس من الضروري أن يكون الأديب أستاذا جامعيا ليكون شيئا، وليس من الضروري أن يكون قد سافر إلى أركان الدنيا ليكون عالما بها. وليس من الضروري أن يكون أعمى أو أعرج ليثير عطف الناس. فيضاف هذا العجز إلى حساب عظمته. لأن الناس يرون أن من الصعب على الأعمى أن يكون شيئا هاما. فإذا تحدى هذا العجز وكان شيئا هاما. فهو عظيم لأسباب عديدة – وهي بعض الحالات المفضلة عند الأساتذة !

أذكر أن د. طه حسين قال في فيما بعد وأنا عنده إنك ما الذي حصل عليه العقاد الذي يعجبك ؟ هو حصلت على ست دكتورات !

وكان العقاد قد مات قبل ذلك بأربعين يوما !

● ● ●

أما توفيق الحكيم فقد أخذ له في حياته العقاد صورة كاريكاتورية. فكما أن العقاد تمثال للتحدي. وطه حسين صورة كلية للمشايخ الذين تعلموا في فرنسا. وأحرزوا مناصب سياسية. فالحكيم شخصية طريفة فكاهية. وكانت فكاهات العقاد عن خلو توفيق الحكيم وحرصه على تدمير المال. وكان الأستاذ يرى أن الحكيم حريص على تثبيت صورته الفكاهية عند الناس. فهو يطيل شعره وهو يرتدي البريه. ويؤكد العقاد أنه أول من لبس البريه وصلعه. ولكن الحكيم قد استعاره منه... وكان الحكيم يمسك العصا في يده. وقد عرفت من الحكيم بعد ذلك. أن سبب اعتماده على العصا أنها تحمل خطواته منتظمة. وهو يريدها منتظمة حتى لا ترتفع درجة حرارته فيصاب بعرق. وهو يخاف من ذلك كله.

ثم إن الصحف في ذلك الوقت قد نشرت للأستاذ الحكيم صورة مع حمارة. هذه الصورة نشرتها مجلة «الآداب». وتبارى الكتاب في التعليق على هذه الصورة.

قال العقاد تعليقا على هذه الصورة: يا حمارة الحكيم اذهبي إلى حماره...

وقال كامل الشناوي: هذا إعلان عن كتاب توفيق الحكيم الجديد.

وكتب مصطفى أمين: اعتبر ذكائك... أيها توفيق الحكيم ؟ ؟

وكان الأستاذ يتحدث عن عيوب أخلاقية في طه حسين والحكيم. فيقول إنهما لا يذهبان لحضور جلسات المجمع اللغوي. ولكن يذهبان لحضور أية جلسات أخرى لأية هيئة أخرى !

توضيح هذه العبارة: أن الأستاذ يرى أنه ما دام الإنسان يتقاضى أجرا قائما من المجمع اللغوي أو المجلس الأعلى للفنون. فلابد أن يذهب. ولذلك لا يتخلف هو عن هذه الجلسات – إلا طه حسين والحكيم. أما اللجان الأخرى التي يتقاضى المضو فيها مكافأة كلما حضر. فإنه عادة لا يذهب – على عكس طه حسين والحكيم !

ولم نفهم في ذلك الوقت مناقشة دارت حول رأي الأستاذ أحمد أمين في العقاد وطه حسين والحكيم. وهيكل باشا – وهم جميعا قد ألفوا كتبا عن محمد عليه السلام... فما هو الفرق بينهم جميعا ؟

قال أحمد أمين: إن هيكل باشا قد وقف إلى جوار الرسول يدافع عنه. وطه حسين قد وقف يرد عليه ويزوح له. والعقاد قد وقف أمامه يرسم له الطريق. والحكيم قد دار حوله يضفي من بعيد !

أحمد أمين

توفيق الحكيم

وكان إذا طلب إليه أحد منا أن يتحدث عن الحكيم فإنه يصف براعة الحكيم في الحوار بأنها نوع من الغزل بالحرير أو الدانتيلا...

وكلمة «الدانتيلا» ليست من الكلمات الدقيقة عند الأستاذ. فقد أعددته واحدة من الفراشات الثلاث دون حوله ثم اختفين بعيدا... «بول أورفو» وصفه العقاد في إحدى قصائده. وقال إن في كل شكة إبرة... فكرة

أي أن هذه المنطقة المحروقة الآن. في كل مرة تتلك الإبرة وتعقد الخيوط معا. تفكر في الأستاذ. وتلك أن تتحيل ملايين الأفكار مع ملايين من شكات الإبر... ولكن الذي لم يعرفه الأستاذ العقاد أن «الدانتيلا» تقوم به المرأة – عادة – وهي تتفرج على التليفزيون وتقرقر الشاي وتداعب كلبا صغيرا – كل ذلك في وقت واحد. فالدانتيلا نشاط آلي لا تفكير فيه !

وكان الفيلسوف العظيم أرسطو يعتقد أن عدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل ؟ ؟

فإن كان الأستاذ يقصد بهذا التشبيه أن الحكيم كان يفكر في كل شكة إبرة... فهذا أقرب وصف لبراعة الحكيم !

ولم يكن توفيق الحكيم شاغلا في ذلك الوقت. فأنا دارس الفلسفة الباحث عن موسيقى الكون ومعمارية الذرق وجمال العقل الإنسان...

الآنسة ص

وكان للأستاذ رأى فى الموسيقى والغناء لم تكن تفهمه بوضوح.

فهو يرى أن الأستاذ محمد عبد الوهاب له صوت جميل وأداء جميل أيضا. ولكن محمد عبد الوهاب لم يجمع فجميع أغانيه متشابهة. والفرق بين اللحن الحزين واللحن المرح هو سرعة دوران الأسطوانة فى الجراموفون أو الفونوغراف - أرجو أن تعود إلى أول المقال لتعرف معنى هذه الكلمة التى اقترحت - فإذا أدرنا الأسطوانة بسرعة، كان اللحن مرحا، وإذا أدرناها ببطء كان اللحن حزينا. وكان يضرب لنا مثلا بأغنية «يا عزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى».

وكان يغنيها بسرعة وعلى مهل ليدلل على وجهة نظره.

وعرفنا فيما بعد أن الأستاذ محمد عبد الوهاب لم يشأ أن يغنى للعقاد واحدة من قصائده.. بينما كانت السيدة نادرة هى الوحيدة التى غنت له!

● ● ●

وتشجعت

مرة قد كرت له أن الذى يحاضرنى فى علم الجمال، أو فلسفة الفن، هو: منصور باشا فهمى.

فضحك العقاد طويلا حتى تراجع إلى الوراء.. ثم عاد يسألنى الضحك واقفا!

قال: يا مولانا هذا رجل جاهل.

وفى ذلك الوقت كنت طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة. ولذلك كان لى أساتذة إضافيون: منصور باشا فهمى يدرس لى علم الجمال، والأستاذ اليونانى بريستياك يعلمنى: المجتمعات البدائية وقال الكيس كير. والسيدة مرج تعلمنى اللغة الألمانية.

وقلت للأستاذ: أنا الطالب الوحيد..

فانفجر شهيه للضحك أكثر: وبذلك الخصر ضرورة قبلك.. أنت الآن موءود يا مولانا!

وعاد يضحكنا على منصور باشا فهمى فقال: اختلفنا فى الجميع على تعريف الزمان والأبدية.. فقلت إن الزمن محدد الأبدية.. لأن الزمن محدود، والأبدية غير محدودة. هل تعرف ماذا قال أستاذك منصور فهمى هذا؟.. قال: إن «الزمن» هو الوقت المحدود. أما «الزمان» فهو الوقت غير المحدود!

وضحك العقاد وضحك حتى امتلأت عيناه بالدموع وقال منصور باشا فهمى: قل لى يا دكتور إذا كان الزمن هو الوقت المحدود، والزمان هو الوقت غير المحدود.. فكم تقدر أن عدد حروف الألف الذى يفرق بين الزمن والزمان؟.. كيف عددها فى الكتب؟.. كم يكون طولها؟

وتوقف العقاد فجأة وانطفأت كل الأنوار فى وجهه وانزل الستار ووقف ليتلقى تحكم الاعدام فى هدوء قائلا: انه جاهل يا مولانا!

ولم أشاركه هذه النهاية الحزينة لأحد أساتذتى..

وأذكر أنى اختلفت مع د. منصور باشا فهمى فى تعريف بعض الكلمات الفلسفية. فالقرح أن أعمد بخطاب إليه على عنوانه بالمنيرة، وأشرح له وجهة نظرى فى هذه الكلمات.

وفوجئت بعد أيام بخطاب منه يقول: إنه لا يعرف أن هناك من يقرأ كتبه، وأنه يشكرنى على اهتمامى بها، وأنه يدعونى لزيارته فى أى يوم أحدده.

وذهبت إليه فى الموعد المحدد، وكان أول لقاء بينى وبين أستاذ جامعى.

وكان منصور باشا فهمى يجلس على مكتب كبير، وأمامه كومة من الأوراق والكتب، وكان يدخن سيجارة طويلة، وعلى رأسه طربوش أحمر.

وكان يتحدث بالعربية الفصحى، وبلغة سليمة، وبأسلوب واضح.

وكان يتحدث عن الجمال، وعن الفن، وعن الأدب، وعن الموسيقى، وعن الشعر، وعن الرسم، وعن النحت، وعن التمثيل، وعن الغناء.. وكان من أحلام العقاد أن يؤلف كتابا عن «فلسفة الجمال»، ولكنه لم يفعل.

وللعقاد آراء كثيرة فى الجمال والدلال والحس والحسن.. ولكن لم يتسع وقته أو عمره ليكمل نظريته الشاملة لكل ذلك.

بل حدث أن بعث إليه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بكتاب له بعنوان «وسائل الأحزان». فنظر إليه العقاد وقال: لا.. لن أتجاوز غلاف هذا الكتاب!

لماذا؟.. لأن تحت العنوان سطرا يقول: إنه دراسة فى فلسفة الجمال. وكان العقاد مشغولا بذلك. فلم يشأ أن يقرأ فيأتى بما كتب مصطفى صادق الرافعى.

فكان الأستاذ يقول فى ذلك الوقت: إن الجمال هو الحرية.. فالجسم الجميل هو الجسم الذى تمشى فيه الحياة حرة. فلا تتوقف عند الصدر أو عند الأرداف.. إنما تمشى الحياة حرة دون أن يوقفها شىء.. والصوت الجميل هو الذى لا يتحالف فى الحلق.. والبشرة الجميلة هى التى تمشى على عضلنا الأصابع دون أن تتوقف أو تتعثر.

وعندما وصف العقاد جبهة الأديبة مى زيادة قال: إنها جبهة حرة!

أى أن منتهى الجمال.

وفى ذلك الوقت ترجم زميلان فى قسم الفلسفة - سويدان، كتاب «خلاصة علم الجمال» للفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه. الزميلان هما المرحوم سامى الدروبى وبديع الكسم.

وأذكر بعد ذلك بوقت طويل أنى سافرت إلى نابولى فى إيطاليا. واتجهت إلى بيت الفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه الذى رفض أن يكون أول رئيس جمهورية لإيطاليا بعد موسولينى. وقابلت ابنته وقدمت لها نفسى. ولم أكن شيئا ولكن كنت أحد الدارسين للفلسفة أيضا. وحدثتها كثيرا ولكن الذى استوقفها أنى قلت لها إنى قرأت كتاب والدها فى «علم الجمال». وإنى أختلف معه. فأنا أرى أن الجمال هو الحرية - ولم يكن هذا رأى كما تعرف.

وسكتت ابنة الفيلسوف فى أدب وضبر وملاطفة، وقالت:

وأعجبت بهذا الرجل وتتلمذت عليه الدرس اليونانية القديمة والعصرية. وأقارن بين أصول الكلمات. وكان ذلك أول أمتاع يهودى أراه فى حياتى..

وأذكر أنه حزن كثيرا جدا عند نهاية العام. عندما طلب إلى أن أحضر فى اليوم التالى للامتحان.. وفوجىء الرجل بأنى لست من طلبته. إنما أنا أجىء لسماع محاضراته متطوعا إعجابا به. أما تلاميذه فهم لا يحضرون عادة. لأن هذا العلم الذى يدرسه لهم اختيارى. وليس من الضرورى أن يمتحنوا فيه!

ووضع بارون كرادوس أصابعى كلها على أماكن كثيرة من قلة اللغات السامية والأوروبية.. وكان أول من دلنى على المعانى الأصلية للكلمات.. وأن اللغة لها عبقرية. وأنه يجرى على الكلمات من تغيير، ما يجرى على الناس.. فاللغة وسيلة مواصلات. وقد تطورت وسائل المواصلات.. أو إن اللغة هى الزى الذى يبرز معالمنا. أو يخفيها. وقد تطورت الأزياء. الأزياء التى تبرز الصدور وتخفى الأرداف..

● ● ●

ولما

قلت للأستاذ مناقشا فى «علم الجمال»، أقاضى فى ذلك. وكان رائعا حقا فهو شاعر رقيق حكيم. وهو دوافة للجمال، جمال المرأة والطبيعة والموسيقى وفن الكلام والرسم والنحت والتمثيل والغناء.. وكان من أحلام العقاد أن يؤلف كتابا عن «فلسفة الجمال»، ولكنه لم يفعل.

وللعقاد آراء كثيرة فى الجمال والدلال والحس والحسن.. ولكن لم يتسع وقته أو عمره ليكمل نظريته الشاملة لكل ذلك.

بل حدث أن بعث إليه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بكتاب له بعنوان «وسائل الأحزان». فنظر إليه العقاد وقال: لا.. لن أتجاوز غلاف هذا الكتاب!

لماذا؟.. لأن تحت العنوان سطرا يقول: إنه دراسة فى فلسفة الجمال. وكان العقاد مشغولا بذلك. فلم يشأ أن يقرأ فيأتى بما كتب مصطفى صادق الرافعى.

فكان الأستاذ يقول فى ذلك الوقت: إن الجمال هو الحرية.. فالجسم الجميل هو الجسم الذى تمشى فيه الحياة حرة. فلا تتوقف عند الصدر أو عند الأرداف.. إنما تمشى الحياة حرة دون أن يوقفها شىء.. والصوت الجميل هو الذى لا يتحالف فى الحلق.. والبشرة الجميلة هى التى تمشى على عضلنا الأصابع دون أن تتوقف أو تتعثر.

وعندما وصف العقاد جبهة الأديبة مى زيادة قال: إنها جبهة حرة!

أى أن منتهى الجمال.

وفى ذلك الوقت ترجم زميلان فى قسم الفلسفة - سويدان، كتاب «خلاصة علم الجمال» للفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه. الزميلان هما المرحوم سامى الدروبى وبديع الكسم.

وأذكر بعد ذلك بوقت طويل أنى سافرت إلى نابولى فى إيطاليا. واتجهت إلى بيت الفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه الذى رفض أن يكون أول رئيس جمهورية لإيطاليا بعد موسوليني. وقابلت ابنته وقدمت لها نفسى. ولم أكن شيئا ولكن كنت أحد الدارسين للفلسفة أيضا. وحدثتها كثيرا ولكن الذى استوقفها أنى قلت لها إنى قرأت كتاب والدها فى «علم الجمال». وإنى أختلف معه. فأنا أرى أن الجمال هو الحرية - ولم يكن هذا رأى كما تعرف.

وسكتت ابنة الفيلسوف فى أدب وضبر وملاطفة، وقالت:

لكن هذا رأى والدى أيضا ، فهو يرى أن التاريخ كله ليس إلا الحرية . وكل ما يخطه الإنسان فى تاريخه هو حرصه على أن يكون نصيبه من الحرية أكثر . وكثيرا ما أكلت حرية الفرد لمواجهة حريات الآخرين . وهنا تصبح الحرية قبيحة ، ويصبح الحكم بشعا !

وبسرعة قلت له معتذرا ومتمثلا هذه الإهانة : ولكن الحقيقة ليس هذا رأيى . إنما هو رأى الأستاذ عظيم فى مصر ، وأنا لم أحسن التعبير عنه .

ووجدت فى انتحال رأى الأستاذ عطوفة قوية ! والتاريخ والحقيقة فإن رأى الأستاذ فى الحياة والحرية ليس مأخوذا عن هذا الفيلسوف ، إنما هو رأيه هو واجتهاده هو . ولكن لعل الفيلسوف نرى فى والدها أنه بداية ونهاية كل شىء ، وهى معذورة فى ذلك !

وعندما أخبرتها أن كتاب والدها قد ترجم إلى اللغة العربية ، تمسكت برقة وقالت ، وسألتنى عن اسم المترجم واسم الناشر ولم أكن أعرف السبب فى ذلك الوقت ، وفيما بعد عرفت أنها تريد أن تحصل على نصيبها من حق الأداء العلنى . ولا أعلم أنها حصلت على شىء من ذلك ، ولا أحد من الذين ترجموا أعمالهم فى مصر !

وكانت هذه المرة الأولى التى أسمع فيها عن حق الأداء وعن حق المؤلف فى نصيبه من بيع أفكاره فى أية لغة أخرى !

●●●

●●●

ويكون الأستاذ فى أشد حالات الغضب والعنف عندما يتحدث عن السابلة فى مصر . فهو يمسح بهم الأرض — أو السلف . فقد كان سلف العالمين لا يختلف كثيرا عن الأرض فى نظافته واخضاء اللون منه .

ولا أدعى أنى كنت أعرف فى ذلك الوقت سببا لكل ذلك ، عدا ما يقوله عن سعد زغلول . فهو أعظم السياسيين عنده . ولذلك استحق من الأستاذ أروع كتبه فى فلسفة التاريخ . والأستاذ لا يتعب من الكلام عن رجلين : سعد زغلول وهتلر . أما الأول فيحترمه كثيرا جدا . والثانى يشتمه كثيرا جدا !

●●●

والأستاذ هو أول من قال لنا أثناء انتصارات القوات النازية إن هزيمة هتلر محتومة . وكانت الأسباب التى يقدمها كثيرة . ولم يكن أحد يرى رأيه . وكان ذلك يضاعف تمسك الحاد بفلسفته . وكان يقول : لو أن ألف أعصى قالوا إن الشمس غير موجودة ، وقال واحد منهم إنها ليست كذلك ، فهل هو على خطأ وهم على صواب ؟

ويقول : إن الناس ينظرون إلى ما أنظر ، ولكنهم لا يرون ما أرى !

والعبارة ليست للأستاذ ، ولكنها مشهورة وتناسب المعنى الذى يريده . ولكنه يوضح هذه العبارة أحسن وأجمل فيقول : إن الذى يقول عن هتلر إنه سوف يكسب هذه الحرب ، فإنه يحكم على ذلك بالشمس ، أى أنه يراه يتقدم فيقول إنه سوف يتقدم إلى النصر التام فى النهاية . فهو إنسان يظر ، أو هو إنسان يتحسس التاريخ بأصابعه . ولكن الذى يرى هتلر يتقدم وينتصر ، فيقول إنه سوف ينهزم حتما . فهو لا يتحسس التاريخ ، إنما هو يرى حتمية التاريخ . إنه يسير عكس ريشه فى مواجهته ويقول . ليس من الطبيعى أن ينتصر فى النهاية . بل هزيمته مؤكدة !

●●●

ومثل هذا المنطق فى دراسة التاريخ وتحليل شخصياته هو أسلوب العقاد فى معظم العبقريات التى كتبها . وفى دراساته لابن الرومى وأبى نواس وشاعر الغزل وسعد زغلول وهتلر فى الميزان .

بل هو أسلوب حياته . وأسلوب فكره . فحياته هى فكره الذى تقرؤه . وفكره هو حياته التى تراها .

وعندما قلنا له مرة : إن أحد الزملاء قد باع أرضه لينفق منها على تعليم إخوته .

سألنا : وهل يتعلم هو أيضا ؟

قلنا : لا

قال : كيف يضحى من أجل أن يتعلم إخوته ، ثم يضحى بتعليمه نفسه ؟ .. إنه جاهل بما هى تعلم قيمة ، ويتظاهر بما لذلك يعطف الناس عليه . قولوا له إن الأستاذ يصفه بأنه حمار .. إلا قليلا !

فلما دخل المدرسة فرحنا لذلك . وقلنا للأستاذ : لقد استمع إلى نصيحتك يا أستاذ ودخل المدرسة .

فسألنا بسرعة : وكم عمره ؟

قلنا : فى الخمسين ..

قال : قولوا له إن الأستاذ يقول لك : الآن قد اكتملت حمارا !

ولم ذلك كثير مما كان يقوله من أمثاله .. أو يحمل أمثاله جلدا تحتمى به من وخز النقد وسياط المنطق . ولم يكن الأستاذ يدرى بذلك ، إنما كنا نتوجع فى صمت .. ثم نأوى إلى عظائنا الدينية والفلسفية تحصينا من مواقف العناد

●●●

وفى يوم فاجأنى الأستاذ بهذا السؤال المباشر الذى أربكنى . وكيف يلقى الوجوديون والإخوان المسلمون ؟

إذن لقد عرف أنى من جماعة الإخوان المسلمين فى إنجلترا . إذن لقد أصبحت هدفا لرصاصتين خرجتا فى وقت واحد .

ومطلوب منى أن أرد بسرعة : كيف أوفق بين الشيخ حسن البنا والفلاسفة الوجوديين الملحدين والمؤمنين ؟ . وما الذى أجده فى الإخوان مكملا للوجودية ؟ .. أو ما الذى أجده فى الوجودية متمشيا مع الإخوان المسلمين ؟ .

ثم انقذنى هو من ورطتى هذه لقوله هو الإجابة العنيفة . لابد أنك وجدت شيئا ما بين البنا والبدوى والعوضى — أى لويس عوض — فيع للاثنين متحاورين . ثم قف بعيدا عنهم واحكم عليهم . هنا فقط عرف أحمد أن نظرية دروزو فى الشخصية صحيحة مائة فى المائة .

واستطعت أن أضعهم أمامى فعلا وهو يحدثنى . وتجرأت على أن أتمثل عن كل ما يقول وقارنت بين الاثنين . ثم أجد تشابها . إن للاثنين لوازم مختلفون . الثانى سياسيان ، والثالث ليس سياسيا هو عبد الرحمن بدوى ..

ثم انقذت من استغراق فى هذه المقارنة السريعة لأجد الأستاذ يقول : القاعدة واحدة يا مولانا .. من يأخذ منك حريتك فهو لص .. سواء كان يضع على رأسه تاجا من الذهب أو تاجا من الشوك أو عمامة بيضاء أو سوداء .. أو تاجا من السمنط والريش !

●●●

●●●

●●●

فيا الذى أبقاه لنا الأستاذ من تحليل العظماء وتواجيهم التى علقناها على جدران حياتنا ؟ .

ما من أحد لم يرد فجر .. ما من أحد إلا وضعه مقلوبا . ثم يؤكد لنا بالمنطق والحجة القوية . أن الحجارة لا يقلبها على هؤلاء الناس . إنهم هم الذين يحدثون الحجارة إليهم . لأنهم يستحقون الرجم .. وأن صورهم ليست مقلوبة ، إنما هى مستوية ، وأن هذا قدرهم الطبيعى .

ثم يقول : « والغريب ألا يكونوا كذلك » — وهذه من أحب الجمل عند الأستاذ . ونجدها كثيرا فى حديثه عن التاريخ والعظماء والعبقرية . فهو يراهم جميعا « ضرورة منطقية » و « حتمية تاريخية » ومن الغريب ألا يكونوا كما كانوا !

فهل الأستاذ قد هدم أصنامنا ، وأسقط علينا معابدنا ؟ .

وهل حدث ذلك لبعض أعمدتنا الفكرية .

ولكن الأستاذ لم يكن شمشون الجبار ، الذى هدم المعبد على وعلى أعدائه .

ولكن أعظم ما أعطانا الأستاذ : أنفسنا ..

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » — صدق الله العظيم .

●●●

كان سقراط يبدأ التفكير بأن يعرف الإنسان وكنا نتعلم من الفيلسوف ديكارت أن نشك قبل أن نتأكد . وكان الفيلسوف الفرنسى بيرنا يأصغر كتبه التى أسماها أقصد كتابه : « النقد من الضلال » .

هل كان ضلالا ما كنا فيه ؟ .. نعم .

أهو ضلال الذين لم يجدوا شيئا أو أحدا ؟ .. لا .. بل كان ضلال الذين تكاثرت حولهم الأشياء والعلاقات والمبادىء والعظماء . ثم كانت أيديهم قصيرة وعقولهم قاصرة

ولكن شيئا آخر قد أعطانا الأستاذ : ألا هيب العظماء .

فليس أحد عظيما جدا . وليس أحد صغيرا جدا — فى العظيم صغار ، وفى الصغير عظمة . والشمس نفسها قرصا بلون سوداء والذرة الضئيلة إذا انفجرت تهدم جبلا !

●●●

وقبل ان يموت الأستاذ جلست إلى جواره على سريره أقول له : يا أستاذ كيف نفسر لنا أن رجلا مثلك لديه أحدث كتاب عن الصواريخ . وعنده أول راجيو حاز دخل مصر ؟ !

ولم يقل كلاما مفيدا . فالذى حمل على كتفيه جهازا جبارا مثل عقل الأستاذ . لا يهمه كثيرا ما الذى يكون تحت قدميه . أو فى قدميه !

العدد القادم
الحلقة الثالثة